عمر الخيام

كما أعرفه

محمود المنجوري

الوثائق التاريخية التي وردت فيها أخبار عمر الخيام

وهي وثائق كتبت على وجه التحقيق قبل السنوات الآتية : ٥٠٦ هـ و ٥٣٦ هـ و ٥٩٥ هـ و ٦١١ هـ و ٦٢٠ هـ و ٦٢٨ هـ و ٦٤٦ و٦٧٤ هـ و ٧١٨ هـ و ٨٠٨ هـ وما بعدها وسنرى أن الخيام توفي سنة ٥٢٦ هـ

ونستطيع عند ما نستعرض وقائعها والتواريخ التي دُوّنت فيها ، ان نُقسّمها الى ثلاثة أقسام، وأن نخرّج منها ما يأتي :

(١) — وثائق عاصر كاتبوها الخيام نفسه ، وكانوا على وُجوده شهود اثبات رأوه رأي العين

(٢) — وثائق جاءت في كتب دوّنت في القرن السادس والسابع والثامن للهجرة

(٣) — تعليقات جاءت في كتب دوّنت في القرن التاسع للهجرة وما بعده

﴿ القسم الاول ﴾ : وثائق تتناول وقائع ذكرتها شهود اثبات رأوا الخيام رأي العين

(١) — المقالة الثالثة من (جهار مقالة — أربع مقالات) لاحمد بن عمر علي النظامي العروضي السمرقندي ، خصص النظامي هذه المقالة لأخبار الفلكيين وجاء بها ما ترجمته :

« حظيت في سنة ٥٠٦ هـ في مدينة بلخ وفي قصر « أمير بوسعدجر » بخدمة الاستاذ عمر الخيام والامام المظفر الاسفزاري ، وفي اثناء الحديث سمعت حجة الحق أبي عمر الخيام يقول : انني اذا مت فان قبري سيكون في مكان تهب عليه نسائم الشمال ويتناثر عليه الزهر والورد مرتين في العام الواحد

وقد تملكني العجب من قوله لاني كنت أعلم ان خيامنا لا يتكلم الاّ عن دراية . وفي سنة ٥٣٠ هـ دخلت نيسابور، فبلغني أن التراب قد أخفى ذلك العظيم منذ اربع سنوات، وترك العالم السفلي يتيماً . ولما كان له حق التعليم ذهبت لزيارة قبره يوم الجمعة ومعي رجل

ليدلني على قبره ، فأخذني الرجل الى مزار (حيرة) ولما وصلنا التفت الى اليسار فألفيت قبر الخيام بجانب جدار حديقة مهجورة وقد أحاطت بقبره أشجار المشمش المثمرة وكان الزهر يتساقط على قبره حتى أخفى قبره وقد ذكرت ما قاله لي في بلخ . فبكيت ولم أجد في هذا العالم نظيره، أسكنه الله تبارك وتعالى جنانه بمنه وكرمه»[1]

هذه وثيقة من أقدم الوثائق التاريخية كتبها تلميذ لعمر الخيام وقد تناول فيها اثبات ما يأتي :

انهُ قام على خدمة استاذه الخيام سنة ٥٠٦ هـ بمدينة بلخ وسمع دروسه مع دروس زميله الامام المظفر الاسفزاري — وهو فيلسوف عاصر الخيام وناظره — وانهُ عاد الى نيسابور سنة ٥٣٠ هـ فعلم ان الخيام قد مات منذ اربع سنوات ، وانهُ زار قبره برًّا ووفاءً باستاذه

وبتحقيق هذه الوثيقة تقع وفاة الخيام سنة ٥٢٦ هجرية

ولعل هذه الوثيقة اكثر أمانة ودقة لتدوين الوقائع مما ذكرتهُ مقدمة رباعيات فتزجرلد بل انها تختلف عنها في بعض التفاصيل ، وجدير بالمستشرقين ان يستوثقوا من النصوص عند اعادة طبع رباعيات فتزجرلد وان يرجعوا الى هذه الوثيقة لتصحيح ما ورد في المقدمة

ولقد اهتم بعض المستشرقين بأنواع الزهور التي يمكن ان تنبت مرتين في العام الواحد تأكيداً لرواية الخيام عن نفسه فكتب في هذا العلامة برون كما كتب العلامة وليم سمبسن (W. Simpson) الذي زار نيسابور في اكتوبر ١٨٨٤ وحجَّ الى قبر الخيام ورآه رأي العين وشاهد الزهور منثورة من شجر يورق مرتين في العام ، وذكر المستشرق رس D. Ross ان وليم سمبسن ارسل فصيلة من هذا الشجر الى انجلترة ولان العمريين غرسوها في حدائق كيو Kew — Gardins وان الغرس أفلح ونوَّر

(ب) — كتاب حكماء الاسلام للامام ظهير الدين ابي الحسن ابي القاسم البيهقي[2] فقد ذكر الخيام مرتين

---

(١) جهار مقاله ترجمة E. G. Browne طبع كيمبردج ١٩٢٢ والترجمة العربية للاستاذ الصراف ص ٧ دار السلام بغداد ١٩٣١

(٢) ذكر ياقوت ان البيهقي ولد سنة ٤٥٠ هـ بخراسان وتوفي سنة ٥٣٦ هـ فهو اذن معاصر الخيام وهو منسوب الى بيهق بلدة قريبة من نيسابور وقد نقل عنه المستشرق الروسي زوكوفسكي ولكنه لم يذكر اسم هذا الكتاب

(١) فقال : دخلت على الامام — أي عمر الخيام — في خدمة والدي فسألني معنى هذا البيت في الحماسة :

ولا يرعون اكناف الهُوَينى إذا حفوا ولا أرض الهدون

فقلت له : الهوينى اسم تصغير كالثريا والحميا ومعناه انهم من عزم وجرأتهم لا يرعون النواحي التي أباحتها السهولة ووطأتها المهادنة ولكن النواحي المتحاماة

ثم سألني عن أنواع الخطوط القوسية . فقلت : أنواع الخطوط القوسية اربعة منها محيط دائرة ومنها قوس اعظم من نصف دائرة . فقال لوالدي « شنشنة أعرفها من أخزم »

ولقد جاء في ترجمة المستشرق الروسي Schukovski زوكوفسكي لهذا النص [1] أن البيهقي دخل على عمر الخيام في سنة ٥٠٥ هـ وعلى هذا يكون البيهقي قد شاهد بنفسه عمر الخيام في هذه السنة

(٢) وحكى لي الامام محمد البغدادي انهُ كان يتخلل بخلال من ذهب ويتأمل في كتاب الشفاء ، ولما وصل الى فصل « الواحد والكثير » قال لي : اطلب الاصحاب لانني أريد أن أوصي . ولما اجتمعوا أخذ يصلي لله معرضاً عن صحبه ، ولما سجد كان يقول في سجوده « اللهم اني عرفتك قدر ادراكي ، فاغفر لي فان معرفتي اياك وسيلتي اليك » ثم قضى نحبه

هذا وصف يقرره شاهد أثبت كيف قضى الخيام ساعاته الاخيرة من هذه الحياة ، ولست أدري كيف يرتاب بعض الباحثين في احتمال حدوث هذه الوقائع ، فليس غريباً أن يدرك الانسان قرب أجله ولا سيما اذا بلغ السن التي بلغها الخيام . وليس غريباً أن يوصي الخيام قبل وفاته وما زالنا نسمع كل يوم ما يشبه هذا الحادث

على ان مؤرخاً آخر قد وصف الساعات الاخيرة للخيام ، ولكن في وضع أكثر سعة واحتمالاً ، فذكره الشهرزوري شمس الدين محمد بن محمود في كتابه « نزهة الارواح » الذي ألفهُ بين سنة ٥٨٦ و ٦١١ هـ بقوله :

وحكي انهُ كان — أي عمر — يتخلل بخلال من ذهب وكان يتأمل الالهيات من الشفاء ، فلما وصل الى فصل الواحد والكثير وضع الخلال بين الورقتين ، وقام وصلى ، وأوصى ،

---

(١) نسب زوكوفسكي هذا النص الى كتاب فردوس التواريخ لمولانا خسرو الايرقوهي المكتوب قبيل سنة ٨٠٨ هـ وقد أخذ عنه المستشرق رس في مقالات نشرها في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية ، ابريل ١٨٩٨ ص ٣٤٩ والواقع ان الذي جاء بهذا النص هو البيهقي في كتاب حكماء الاسلام وقد نقله الاستاذ حامد العراق عن نسخة مصورة موجودة بالمجمع العربي بدمشق ظفر بها العلامة محمد كردعلي في أوروبة ونقل مصورة هدية الى مجمع دمشق . ٢ : العراق ط . دار السلام ببغداد

ولم يأكل ولم يشرب . ولما صلى العشاء سجد وكان يقول في سجوده « اللهم تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني فاغفر لي ، وان معرفتي اياك وسيلتي اليك » . ومات رحمه الله تعالى

ولقد جاءت هذه الشهادة من مؤرخ نقد الخيام ووصفه « بسوء الخلق وضيق العطن » كما سترى في الوثيقة التالية :

﴿ القسم الثاني ﴾ — وثائق جاءت في كتب دوّنت في القرنين السادس والسابع والثامن للهجرة

(١) نزهة الأرواح وروضة الافراح لمحمد الشهرازوري سنة ٥٨٦ هـ مقدمة الاستاذ ساخاو في الآثار الباقية لأبي الريحان البيروني ص ٥٦

عمر الخيام نيشابوري الآثار والبلاد كان تلو ابي علي ابن سينا في اجزاء علوم الحكمة إلاّ انهُ كان سيء الخلق ضيق العطن ، تأمل كتاباً باصبهان سبع مرات وحفظهُ وعاد الى نيسابور فأملاه فقوبل بنسختهِ الأصلية فلم يوجد بينهما تفاوت ، وله ضنة بالتصنيف والتعليم ، ولهُ مختصر في الطبيعيات ورسالة في الوجود ورسالة في الكون والتكليف . وكان عالماً بالفقه واللغة والتواريخ

ودخل الامام عمر يوماً على شهاب الاسلام الوزير عبد الرزاق وكان عنده امام القراء ابو الحسن الغزالي وكان يتكلمان في اختلاف القراء في آية فقال الوزير : على الخبير سقطنا ، فسئل الامام عمر عن ذلك ، فذكر وجوه اختلاف القراء وعلل كلام كل واحد منهما ثم ذكر الشواذ وعللها وفضل وجهاً واحداً فقال الغزالي « كثّر الله في العلماء مثلك اجملني من بعض أهلك وارض عني فاني ما ظننت أحداً من القراء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفهُ فضلاً عن واحد من الحكماء »

وأما أجزاء الحكمة من الرياضيات والمعقولات فكان ابن بجدتها

ودخل حجة الاسلام الغزالي عليه وسأله عن تعيين جزء من أجزاء الفلك القطبية دون غيرها مع كونه مشابه الاجزاء ، فطوّل الخيامي الكلام ، وابتدأ من الحركة من مقولة كهذا وضن بالخوض في كل النزاع ، وكان من دأب ذلك الشيخ المطاع ، حتى أذن الظهر فقال الغزالي جاء الحق وزهق الباطل . وكان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء ، والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه غاية التعظيم ويجلسهُ معهُ على سريره

تثبت هذه الوثيقة مقابلة الخيام لوزير من وزراء عهده وهو شهاب الاسلام والي طوس كما تقرر مقابلتهُ للامام الغزالي ، وشهادته للخيام واقراره له بالفضل كما تثبت ان الخيام كان مقرباً من الملوك حتى ان الخاقان شمس الملوك كان يجلسهُ على سريره تقديراً للعلم واعتزازاً

لمركزه ، وكان ملكشاه يعزله منزلة الندماء . فالخيام بهذه الوثيقة عاد يقرن بالغزالي ونديم تتوق الملوك الى مجلسه ورجل مُوفق الحظ برفعة الملوك ويقربونه اليهم

ولم تكن هذه الشهادة آتية من رجل شايع الخيام بل جاءت من مؤرخ حمل عليه ونقد مذهبه فأثبت ان الخيام « كان سيىء الخلق ضيق العطن » فهذه وثيقة تقرر ما للخيام وما عليه في نظر مؤرخه ، وهي الى ما ذكر تثبت ما وصل الى علم صاحبها من أسماء مؤلفات الخيام وتشهد بذكاء عمر النادر

(ب) مرصاد العباد لنجم الدين أبي بكر الرازي ألفه سنة ٦٢٠ هـ — ١١٢٣ م بالفارسية في التصوف وأدب النفس ، وهو لا يشتمل على سيرة الخيام إلا أن مؤلفه نقد الخيام نقداً له قيمته من ناحية الحكم على مذهب الرجل وعلى خلط الناس بين مذهبه ومذهب المتصوفة ، فوضع الخيام في مصاف الفلاسفة الماديين الذين ينكرون البعث والنشور فقال ما ترجمته [1]

« وما الحكمة في جعل هذه الروح العلوية النورانية في قالب سفلي أظلم متخذ من التراب ؟ ثم ما السبب في التفريق بين الروح والجسد وقطع العلاقة بينهما ؟ لِمَ تتلاشى هذه الصورة وهذا الشكل ، وما السبب في نشر جسد الانسان في المحشر مرة اخرى ؟

أجل ، ان الذي خرج من زمرة (كالانعام بل هم أضل سبيلا) ووصل الى المرتبة الانسانية وخلص من قوله (ويعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) وسلك بذوق وشوق عظيمين الطريق الحسن ، علم أن ثمر النظر والقدم هو الايمان والعرفان

ان الفيلسوف الدهري الطبيعي محروم هذين المقامين حتى ان أحد الفضلاء وهو الشهير بحكمته وكياسته (عمر الخيام) قد تاه في بيداء الضلال بقوله :

در دائرة كه مدن وفتن ماست
آثر نه بدايت نه نهايت پيداست
كس مي نزند دمي درين عالم راست
كاين آمدن از كجا ورفتن بكجاست

يعني : ان الدائرة التي فيها تجيء وتذهب ليست بذات بداية ونهاية ، لا أحد يستطيع أن يقول من أين هذا المجيء والى أين هذا الذهاب

---

(١) اترجمه فعرفت عن الفارسية

(ب) كتاب كامل التواريخ لابن الاثير سنة ٦٢٨ هـ جاء فيه عن الخيام في حوادث سنة ٤٢٧ هـ ما يأتي :

« وفيها جمع نظام الملك والسلطان ملكشاه جماعة من أعيان المنجمين ، وجعلوا النيروز اول نقطة من الحمل ، وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت ، وصارت فعلة السلطان مبدأ التقاويم . وفيها أيضاً عمل الرصد للسلطان ملكشاه واجتمع جماعة من أعيان المنجمين في عمله ، منهم عمر بن ابراهيم الخياميّ وأبو المظفر الاسفزاري وميمون ابن النجيب الواسطي وغيرهم . وخرج عليه من الاموال شيء عظيم ، وبقي الرصد دائراً الى ان مات السلطان سنة ٤٨٥ هـ فبطل بعد موته »

فهذه الوثيقة تقرر اجتماع الخيام بعلماء عصره بدعوة ملكشاه لتصحيح التقويم وعمل الارصاد الفلكية وهي تثبت ان هذا الاجتماع بدأ سنة ٤٢٧ هـ ولكنها لم تذكر اسماء جميع أعضاء هذا المجمع الفلكي

(د) كتاب تاريخ الحكماء للمؤرخ الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الاشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ سنة ١٢٤٨ م . وفيه ذكر الخيام قال :[1]

« امام خراسان ، وعلامة الزمان ، معلم علم يونان ، ويحث على طلب الواحد الديان ، بتطهير الحركات البدنية ، لتزيين النفس الانسانية ويأمر بالتزام السياسة المدنية ، حسب القواعد اليونانية . وقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها الى طريقتهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم ، وبواطنها حيات للشريعة لوّاسع ، ومجامع للاغلال حوامع . ولما قدح أهل زمانه في دينه وأظهروا ما أسره من مكنونه ، خشي على دمه وأمسك من عنان لسانه وقلمه ، وحج متاقاة لا تقية ، وأبدى أسراراً من السرار غير بقية . ولما حصل ببغداد سعى اليه أهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سدّ النادم لاسد الذميم ، ورجع من حجه الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ، ويكتم أسراره ولا بدّ ان تبدو ، وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة وبه يضرب المثل في هذه الانواع لو رزق العصمة . وله شعر طائر تظهر خفياته على خوافيه » وقد أتى القفطي بقصيدة نظمها الخيام بالعربية منها

اذا كان محصول الحياة مبية فسيان حالا كل ساعٍ وقاعد

كتبت هذه الوثيقة التاريخية في القرن السابع للهجرة وهي تهدف بنا الى الناحي التي

---

(١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٤٠٦ طبعة

أخذ عنها الخيام فلسفته فتقرر أن الخيام « يعلم علم اليونان ، ويأمر بالتزام السياسة المدنية حسب القواعد اليونانية » وتكشفنا على أمر اخر خطير يعلل ذهاب الناس بالخيام مذهب المتصوفة فتدلنا الى سر ذلك فتقول بأن بعض المتصوفين وقفوا على شيء من ظواهر شعره فنقلوه الى طريقتهم وتحاضروا به في مجالسهم وخلواتهم وهذا يعلل السبب في اختلاف عدد الرباعيات وكثرتها ويكشف لنا السر في وجود الرباعيات المنسوبة الى الخيام فهؤلاء المتصوفون هم الذين أدخلوا الكثير من نظمهم على رباعيات الخيام فنحلوه إياه

وتدل هذه الوثيقة على ان الخيام لم يسلم من نقد عصره واتهامه اياه بالزندقة حتى انهُ خشي على دمه ، وكف عن أسلوبه في التهكم بالعادات والتقاليد والعقائد وذهب بحج بيت الله متاقاة ودفعاً لسوء يناله أو مكروه يصيبه من الناس

وتشير هذه الوثيقة الى ان الخيام كان صاحب مدرسة يتبعه في مذهبه تلاميذ وأشياع فتقرر بأنهُ لما عاد من الحج الى بغداد اقبل اليه « اهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سد النادم » وتقرر بأن الرجل كان يخشى على نفسه من خصومه فتظاهر بعد الحج بالعبادة والتقوى « ورجع من حجهِ الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ، ويكتم أسراره ولا بدَّ ان تبدو »

(هـ) كتاب آثار البلاد وأخبار العباد وهو مؤلف عربي في الجغرافية كتبه زكريا القزويني سنة ٦٧٤ هـ وقد ذكر الخيام عند كلامه على مدينة نيسابور قال

« ينسب اليها من الحكماء عمر الخيام، كان حكيماً عارفاً بجميع أنواع الحكمة سيما النوع الرياضي ، وكان في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي، سلم اليه مالاً كثيراً ليشتري به آلات الرصد ، ويتخذ رصد الكواكب . فات السلطان وما تم ذلك »

(و) كتاب جامع التواريخ كتبهُ رشيد الدين بن فضل الله المتوفى سنة ٧١٨ هـ جاء فيه ما ترجمته [1]

ان اسباب العداوة والنفرة التي كانت بين سيدنا حسن الصباح وعمر الخيام ونظام الملك انهم كانوا في مدرسة واحدة ، وكان بينهم صفاء واخاء وصداقة عظيمة كما يحدث بين ابناء المدارس ، حتى وصلت الصداقة الى اوجها ، واتفقوا على الاخاء والمحبة ثم اتفقوا على ان من ينال منهم رتبة عظمة يساعد الآخرين ، وبحسب الاتفاق ، اتفق ان وزّر نظام الملك وزيراً كما هو مذكور في تاريخ آل سلجوق فذهب اليه عمر الخيام وذكره بالعهود

(١) الترجمة لبراون . وذكر براون ان هذا الكتاب قد تم تأليفه سنة ٧٠٩ هـ وأتى حوالي سنة ٧١٠ هـ

والمواثيق في أيام الصبا فتذكر نظام الملك الحقوق القديمة وقال له : وليتك نيسابور ونواحيها وكان عمر حكيماً عظيماً فاضلاً عاقلاً فقال : ليس لي طاقة بالسياسة وأمر العوام وسهمهم فأعطني راتباً شهرياً بحسب الوظيفة . فأعطاه نظام الملك عشرة آلاف دينار في السنة من دخل نيسابور المحروسة بدون نقص ولا انقطاع ... وكذلك سيدنا حسن الصباح ذهب من الري الى نظام الملك ليحظى بخدمته ، وقال له : الكريم اذا وعد وفّى ، فقال له نظام الملك : اختر بين ولاية الري وأصفهان » وكان سيدنا ذا همة عالية فلم يقنع بذلك ولم يرض به وكان يتوقع ان يشاركه بالوزارة فقال له نظام الملك : كن ملازماً لحضرة السلطان مدة. ان نظام الملك كان يعلم ان حسن الصباح كان طالباً لأن يحل محله في الوزارة والرتبة فكان يتحذر منه ، وبعد سنين استوحش السلطان من نظام الملك ورفع الحساب من عهدته »

تصف هذه الوثيقة حكاية الرفاق الثلاثة وما اتفقوا عليه فيما بينهم من عهد أيام الصبا والمدرسة ، وتذكر ولاية نظام الملك الوزارة وذهاب عمر الخيام بطالبه البر بوعده ، وتذكر وفاء الصديق نظام الملك للخيام وكيف أقطعهُ ولاية نيسابور وكيف أبى الخيام هذا وطلب راتباً يناله ، وكيف أجيب الى بغيته . وتذكر هذه الوثيقة كيف سعى حسن الصباح الى صديقه القديم وكيف طالبهُ برّاً بوعده ، وكيف كان يضمر لصديقه الوزير من طمع في الجاه والوزارة ، فلم يقنع بولاية الري أو اصفهان ، كما تذكر ان نظام الملك أحسَّ بهذا الخطر عليه من زميله القديم فأبعده عن نفسه ولكن الحقهُ بخدمة السلطان ، كما تشير هذه الوثيقة اشارة خفية الى ان السلطان غضب بعد ذلك على نظام الملك لحقد من اشرافه على أموال الدولة بسبب سعاية حسن الصباح

على انهُ يظهر جلياً ان صاحب هذه الوثيقة كان من أتباع الباطنية بدليل انه يذكر حسن الصباح مقروناً بلفظة « سيدنا وأنهُ كان ذا همة عالية » فلم يقنع بالعرض السخي الذي عرضهُ عليه نظام الملك ، وبدليل انهُ لم يصرح بنقد لحسن الصباح في سعايته عند السلطان ووشايته بصديقه وولي نعمته نظام الملك

***

والوقائع التي جمعتها هذه الوثيقة تجعلنا نعتقد ان الخيام قد اجتمع بصديقه القديم حسن الصباح ، فهل تعاون الخيام في نشر الدعوة الباطنية مع صديقه صاحب هذه الدعوة ؟ وهل تخفي الرباعيات عقائد الباطنية مطوية مسطورة ؟ لعلنا نظفر بشيء من ذلك في دراستنا المقبلة للخيام .